العيوب الصغيرة

لحضرة صاحب العزة الأستاذ أنطون الجميل بك رئيس تحرير "الاهرام" وعضو مجلس الشيوخ	ألقيت هذه المحاضرة النفيسة فى جامعة فؤاد الاول بدعوة من نقابة خريجى الجامعة

تفضلت نقابة خريجى الجامعة فدعتنى إلى الاشتراك بمحاضرة فى موسمها الثقافى. ثم طلبت إلىّ فى كتاب من مجلس إدارتها أن أحدد موضوع حديثى ، وقد جاء فى هذا الكتاب أن الغرض من إقامة هذا الموسم هو " المساهمة فى النهضة الثقافية والدعوة الإصلاحية ، رغبة فى بث الروح الوطنى الشاب ، و إشاعة الفكر العالى ، إجلاء للمثل العليا ، وتوجيها للشباب نحو رسالته السامية " .

رسالة الشباب السامية ؟ . . وهل للشباب رسالة أسمى من السعى وراء الكمال ؟

المثل العليا ؟ . . وهل من مثل أعلى يتطلع اليه شبابنا النجباء أشرف من استكمال الفضائل فى الفرد والمجموع .

الروح الوطنى الشاب ؟ . . وهل من وطنية أصدق وأنجع من التغلب على النقائص والعيوب و إن كانت صغيرة ؟ نص دستورنا على أن " جميع السلطات مصدرها الأمة " ، وهذا ما يجب أن يكون ، وهذا ما هو كائن فى كل أمة راقية ، وهو لا شك حق الأمم الناضجة ومفخرة البلدان الديمقراطية . ولكن هذه المفخرة وذلك الحق يقابلهما واجبات ومسئوليات ، فلابد من أن يتحلى أفراد الأمة بالفضائل التى تؤهلهم لأن يكونوا مصدر السلطات . وهذا واجب الرجال المثقفين تثقيفا عاليا قبل الذين لم ينالوا من الثقافة إلا طفاوات يسيرة .

هذا ما جال بخاطرى عند ما تلقيت كتاب هذه النقابة الناهضة وعند ما تحدث إلىّ بعض أفرادها عن أغراضها . فذكرت حينئذ أننى دعيت منذ مدة إلى الخطابة فى أحد المعاهد العلمية حيث جعلت مدار خطابى على : "الفضائل الصغيرة" . ثم رأيت أنى لن أستوفى الموضوع إلا إذا تناولت بالبحث : "العيوب الصغيرة" وصرت من ذلك اليوم أرقب الفرصة المناسبة لطرق هذا الموضوع إلى أن دعيت إلى المساهمة فى هذا " الموسم الثقافى " فرأيتها الفرصة الموانية .

وما هى " الثقافة " التى أحسنتم ، يا اخوانى ، إذ نسبتم اليها موسيكم الموفق ؟

انها بمعناها المجازى — كما تعرفون — تهذيب الولد وتأديبه ، وبمعناها الحقيق تسوية الرمح وتقويمه . أولستم يافتيان الأمة المثقفين رماحها المشرعة وسيوفها الماضية ؟ ألا ينبغى أن تكون هـذه الرماح والسيوف دائما أبدا ماضية الحد ، صقيلة النصل ، سليمة من كل شائبة .

وأذكر أيضا أنى قلت فى محاضرتى عن " الفضائل الصغيرة " ما خلاصته أن ظروف الحياة لا تهيئ لكل إنسان مزاولة الفضائل الكبيرة ليكون فى وفاء السموءل ، وعدل ابن الخطاب ، وشهامة صلاح الدين . ولكن ظروف الحياة تهيئ دائما ، ولكل منا ، وفى كل يوم من أيام حياته ، أن يكون وفيا لأصدقائه ، عادلا فى أحكامه ، أمينا فى أعماله . .

أيها السادة : إن شأننا لكذلك بين الكبائر والصغائر من العيوب والنقائص . ولا ريب فى أن بحث عيوبنا الصغيرة يعود علينا بفائدة أغرب وأشمل من بحث الكبيرة منها ، وإن كان من الصعب العسير أن نقيم حدا فاصلا بين هذه وتلك ، فنجزم متى تكون من العيوب البسيطة العرضية ، ومتى تصبح من الفواحش وكبائر الاثم .

وفى الواقع ليس بيننا من يقتل أو يسرق أو يخون وطنه بالمعنى الحقيق للقتل والسرقة والخيانة . أما بالمعنى المجازى فكم بيننا من قتلة ولصوص وخونة . فقد نقتل ، وقد نسرق ، وقد نخون ، كل يوم ، باللسان ، بل بالإشارة ، بل بالقلب والفكر . وربما كان أحيانا فعل هذه العيوب الصغيرة بعيد النتائج خطير العواقب ، كفعل الكبائر . ومع ذلك قد اعتدنا ، تساهلا مع أنفسنا ، أن نسمى هذه العيوب شهوات أو هفوات أو هنات هينات ، وإن هى فى الغالب إلا مآثم وجرائم وجنايات .

يفتن الإنسان فى اختلاق الأعذار والمبررات لعيوبه ، فيقول وقد لبس لبوس الأتقياء المتواضعين " إن الكمال لله ! " وهـذا صحيح . ولكن الله يأمرنا بأن نسعى إلى الكمال ، بل إن الحياة المثلى هى من أولها إلى آخرها سعى متواصل وتطلع دائم إلى هذا الكمال ، فالانسان كما قال ديكارت " كائن ناقص يجب أن يتطلع دائما إلى ما هو أكمل وأفضل وأسمى " .

الكمال لله وحده ، قول حق يراد به باطل ، لأننا نقوله على سبيل التواضع الكاذب الذى يستر نوعا من الكبرياء الخبيثة ، فان كثيرين يشكون مما كتب الله لهم فى هذه الحياة من رزق وحظ وتوفيق ، ولكن الجميع يحمدون الله ويشكرونه على ما أغدق عليهم من فطنة وذكاء وكمال .

ومن مظاهر هـذا التواضع التقليدى أن كل مؤلف فى القرن الماضى كان يرى لزاما عليه ، مقدمة كتابه ، أن يخاطب القارئ بقول الشاعر :

إن تجد عيبا فسد الخللا جل من لا عيب فيه وعلا

نعم إن الاعتراف بعيوبنا تواضع ، ومكاشفة أصدقائنا بها ثقة واستنجاد ، ولكن إعلانها على الناس كبرياء .

فالواجب إذن على العاقل أن يخفى على نفسه ليصلح عيوبها ونقائصها ، لا ليحاول أن يسدل عليها ستارا شفافا من التواضع المهلهل ، وهو يعتقد واهما أنه بذلك يحجبها عن عيون الناس ، أو أنه يدفعهم على الأقل إلى اغتفارها له .

أما الرجل الذى يفحص نفسه ولا يجد فيها عيبا فهو من غير ريب من الوجهة الأدبية فى حالة مرضية .

حكى عن المثال الدنمركى " ثور والدسن " أن أحد أصدقائه دخل عليه يوما فى ممثله ، فوجده يبكى و ينتحب أمام آخر تمثال خرج من بين يديه ، فلما سأله الصديق عن سبب بكائه قال : " إنى أحدق فى هذا التمثال منذ ساعة ولا أجد فيه عيبا ، وهـذا دليل قاطع على خمول تفكيرى وخمود قريحتى ... "

أيها السادة : ما أبعد البون بين هـذا الفنان العبقرى والرجل الذى يتملكه الغرور حتى لا يرى عيوبه فيخال نفسه فى أوج الكمال ، وما الغرور سوى طابع النفوس الضعيفة الفقيرة إلى الفضائل الصحيحة ، وقـد يدرج بين العيوب الصغيرة ولكنه كسائر العيوب الصغيرة كثير العواقب الخطيرة .

الشاب المغرور يكفيه فى مطلع حياته أن يصعد إلى خشبة مسرح الحياة لكى يتوهم أنه الممثل الأول . والموظف المغرور بمنصبه يدل على أنه أقل من هذا المنصب . والغنى المغرور بملبسه وبمركبته إنما يرجع كل فضل فيه إلى خائط الثياب وسائق السيارة .

إذا أردتم أن تعرفوا حقيقة امرئ ، زوّدوه بسلطة واسـعة ، أو انظروا اليه ، وقد أقبلت الدنيا عليه ، كيف يشمخ بأنفه ، و يصعر خده و يمشى فى الأرض مرحا ، وفاته أن حديث النعمة إذا نمى أصله ذكرناه ، و إذا ذكره نسيناه .

والغرور يولد فى صدر صاحبه الخيلاء والاعجاب بالنفس ، ومن يعجب بنفسه لا يعجب أحدا ، فلا يلبث أن يحمله الغرور على استجداء المديح ، فى حين أنه يجب أن نستحق المديح ونهرب منه ، قال أبو تمـام :

متبـذل فى النوم وهو مبجل متواضع فى الحى وهو معظم

فاذا شئت أن يقول النـاس فيك خيرا فلا تقله أنت ، ولكن المغرور المعجب بنفسه يجعل جميع ما قد يكون فيه من صفات ومزايا عرضة للبحث والتمحيص ، لأن الناس يأبون

عليه أن يكون فيه مع الغرور أى صفة أو فضل ، فهو كالطاووس ينفش ريش ذيله حتى يكاد يجعل منه تاجا ، ولكنه يكشف عن أقبح ما فيه ، ولله در مهيار حيث يقول :

يطلب المدح لكى يفضحه وهو قبل المدح مستور العيوب

وهذا العيب فى الإنسان يولد عيبا آخر فى من حوله ، وهو الملق أو التزلف أو المدح الكاذب ، وما المدح الكاذب كما قال لاروشفوكو "سوى نقد زائف لا يروجه إلا غرورنا" ، ولقد صدق من قال "إن المدح الكاذب يشبه ظلك : يمتد حينا فتبدو طويلا ، وينقلص حينا فتبدو صغيرا ، ولكنه فى الحقيقة لا يزيد قامتك طولا ولا قصرا".

على أنه ليس من الغرور فى شىء أن يقدر المرء نفسه حق قدرها فيحتفظ بكرامتها و يضن بمنزلتها ، و إذا كانت كثرة الإعجاب بالنفس تخافة فان قلته ضعف ووهن ، فليس من وسيلة إلى أن تصبح حقيرا أقرب من أن تخال نفسك حقيرا .

وليس من الغرور فى شىء أيضا أن نغتبط باحترام أهل الفضل لنا وثنائهم علينا ، فإن من لا يكترث بمثل هذا الثناء وذلك الاحترام كذاب فى تواضعه ، خبيث فى زهده ، بالغ أقصى غاية فى غروره .

ومن العيوب التى تمت الى الغرور بأكثر من سبب ، التبرم وكثرة الشكوى وعدم رضى المرء عن حالته وعن الناس أجمعين ، فهو دائما أبدا ناقم على الدنيا ، متبرم بالناس ، لأن الدنيا لم تسعفه ، والناس لم تنصفه :

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

فهو دائم الشكوى من الظروف والملابسات ، ومن الدهر الظلوم :

الدهر لا يدرى بما هو كائن فيه ، فكيف يلام فيما كانا
نشكو الزمان ، وما أتى بجناية ولو استطاع تكلما لشكانا

واستمرار الشكوى يعكر المزاج . ولكن المزاج العكر لا يغير مجرى الحوادث ولا طبيعة الأشياء التى لا تهتم لنا . وأفضل من التذمر والشكوى إذا كنا أمام عمل لا يسرنا ولا يروقنا أن نقبل عليه هادئين راضين ، فنتغلب على الموقف فلا نسمم حياتنا . فان أمامنا من الآلام الحقيقية ما يغنينا عن اصطناع آلام وهمية . وصفوة القول إن المتذمر الشاكى متعب ، متعب فى معاملته ، متزعج ، مزعج فى صداقته .

ولما كانت العيوب سلسلة متماسكة الحلقات فان هذين العيبين ناشئان فى الغالب عن الأنانية والإفراط فى حب الذات . وهو عيب قد تفشى وانتشر ، حتى أصبح خطرا وأى خطر !

يقول علماء النفس إن فى طبيعة الانسان عاملين أو حافزين متناقضين : حبه ذاته أو الأنانية التى تدفعه الى حصر همه فى نفسه ، وحبه غيره أو الغيرية التى تدفعه الى الانصراف بكل همه الى الغير . فاذا تلاشى العامل الأول صار الانسان كريما الى حد الاسراف والجنون وإذا تلاشى العامل الآخر صار الانسان شريرا الى حد الضرر والاجرام .

فانحب ذاتنا ، ولنحب سوانا ، فنطلب الخير لأنفسنا ، ونطلبه لسوانا .

والذى يحصر همه فى دائرة ضيقة من الصداقات و"علاقات ، لا يلبث أن ينتهى به الأمر الى الخطأ الفاضح فى أحكامه وآرائه ، بل الى البغض والحقد فى ميوله وعواطفه . فيجب أن نخرج من دائرتنا الضيقة لننظر الى الأفق الفسيح ، فنفهم آراء غيرنا وقضاياهم ، أفرادا كانوا أم جماعات ، أحزابا أم طوائف ، مهما تختلف الميول و المذاهب. و إذا خرجنا من دائرتنا الضيقة ينبغى ألا نطالب الناس بالكمال المطلق .

أتطلب صاحبا لا عيب فيه وأنت لكل ما تهوى ركوب

ومتى طالت شكوى الانسان من حالته ومما يحدق به لا تلبث أن تولد فى نفسه شيئا من الضغينة والحسد . وقد يكون الحسد أكثر العيوب الصغيرة محاولة للتستر والاختباء ، كأنه يخجل من نفسه ويستحى من السفور ، فيدب فى طى الكتمان وهو كالسم ينهش القلب بل هو "كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله" .

ولا شك فى أن أنجع وسيلة للشفاء من هذا المرض النفسى أن نسابق من نحسده فى ميدان الفضل، وننافسه فى مكارم الأخلاق، كما أن أحسن طريقة لئلا نحمل الضغينة لمن أساء الينا ، أو تصورنا أنه أساء الينا ، ولئلا نحقد عليه ، ولئلا نحاول الانتقام منه ، أن نحسن نحن اليه ، فاذا كان هو غير جدير باحساننا فإن هذا الإحسان يكسبنا راحة واطمئنانا أما اذا حصرنا همنا فى طلب الانتقام ممن أساء الينا فاننا نكون قد عملنا على التشبه به ، ونحن بالعفو أفضل منه .

ويقول كثيرون إن الاحتقار والإعراض لمما يقضى على الحاسدين الحاقدين المبغضين، ولكن الحلم والاحسان أفعل فى القضاء عليهم ، جربوا تعرفوا ، وتشعروا براحة واطمئنان كان المأمون يقول : " ان الله لا يثيبنى على العفو لأنى أحبه " .

ويخطئ من يزعم أن من لا يبغض لا يحب ، ومن لا يحقد لا يعفو ، ومن قال ذلك كأنه قال إن من لا يجبن لا يشجع ، ومن لا يسرق لا يعف ، وكأنه ليس من فضيلة تزيننا إلا ويقابلها رذيلة تشيننا .

وهناك عيب من العيوب الصغيرة الكثيرة الشيوع ، وهو الغضب أو حدّة المزاج ، وقد عرف علماء النفس الغضب بأنه جنون قصير المدى ، ونحن نقول " سورة " الغضب

كما تقول " سورة " الخمر ، لأن الغضب يشبه السكر فيذهب بالعقل الى حين ، فيكشف العيوب و يفضح الأسرار ، وفى النهاية يورث الندم ، و يكفى لكى تكره الغضب أن تنظر الى الغضبان ، كما تكره السكر اذا نظرت الى السكران .

وإذا أثارك كلمة أو استفزك حادث إلى الغضب فالأجدر بك ألا تقول ولا تكتب شيئا إلا متى سكنت سورة غضبك ، فان حكمك على الأشخاص والحوادث يتغير ، وقد ينقلب الى النقيض بعد ساعات أو بعد دقائق .

وإذا كان الغضب مكروها فى ذاته ، فانه يصبح سخيفا مضحكا إذا تحول الى الأشياء : يستعصى علينا الزر عند لبس القميص فنغضب وقد نقطعه ، و يتمرد علينا المفتاح عند فتح الباب فنغتاظ منه وقد نكسره ، وتعثر رجلنا فى الطريق بحجر فنحنق عليه وقد نرفسه . والزر والمفتاح والحجر جوامد صماء لا تبالى غضبنا وغيظنا وحنقنا ولا يؤثر فيها عنادنا .

والعناد من عيوبنا الصغيرة ، وهو قوة النفوس الضعيفة الصغيرة . ولا نتوهمن أن العناد يمت بصلة قريبة أو بعيدة الى الثبات على المبدأ والحق ، أو إلى التمسك بالقانون والنظام ، بل هو فى الغالب التشبث بالرأى الخاطئ عن معرفة . وكثيرا ما يتحول فى المناقشة إلى مغالطة ومكابرة ، فتكون هزيمة المعاند فى آخر الأمر مخجلة مزرية ، وإذا كان على صواب كان عناده منقصا من فضله . وكم من مرة جعل العناد صوابنا خطأ .

أيها السادة : إن من استسلم الى هذه العيوب التى ذكرنا يصبح فضوليا ، أى أنه يهتم بما لا يعنيه من شؤون الناس ، فيحاول بجميع الوسائل معرفة أخبارهم ، بل الكشف عن خبايا صدورهم للاطلاع على أسرارهم . وكثيرا ما يتورع عن التلصص والتجسس لاستراق هذه الأسرار بالاستماع من وراء الأبواب ، والتطلع من النوافذ ، وفتح المكاتبات الخاصة . ومتى ظل الفضول فى دائرة توافه الأمور كان سخافة وسماجة ، ولكنه إذا امتد إلى المسائل الخطيرة أضحى شرا محقق الضرر . وعلى كل فهو عادة عيب من لا يعرف كيف يشغل نفسه بشؤونه فيشغلها بشؤون غيره .

أما إذا قادنا الفضول الى معرفة كل ما يقوله عنا الناس ، ولا بد من أن يقودنا الى ذلك ، فاننا نعيش منغصين منكدين ، لأن هذا الفضول يولد الشك والقلق . فاذا لم يتيسر لنا معرفة ما يجول فى خواطر الناس حاولنا أن نكشفه عن طريق الحدس والتخمين والشك . والانسان بطبيعته لا يريد أولا يحب أن يكون مخطئا فى تخمينه ، فيترع الى أن يجعل شكه يقينا ، وحدسه حقا ، وتخمينه أمرا واقعا ، فيثور و يغضب . ولما كنا بطبيعتنا كذلك لا نريد أو لا نحب أن يكون غضبنا تجنيا ، وثورتنا ظلما ، فاننا نحاول أن نبرر هذا الغضب وهذه الثورة . فيبدأ غضبنا بمعاداة خيالات وأوهام ، ثم يصير الى مداوة الحقائق والأجسام

وهكذا نرى شغف الفضولى بمعرفة ما لايعنيه يفضى به الى سوء الظن ، و بعض الظن اثم ، و ينتهى به أخيرا الى الاساءة الى نفسه شر إساءة .

والصلة وثيقة بين الفضولى والثرثار . فالأول ولوع بأن يعرف أخبار الناس . والثانى ولوع بأن يعرّف الناس بأخبار الناس . هم الأول استراق الأخبار والأسرار ، وهم الثانى نشر الأخبار و إذاعة الأسرار . ولما كان السر وديعة فافشاء السر خيانة للثقة .

والثرثار لا يتورّع عن الاختلاق ،والمسافة قريبة جدا بينه و بين الكذب والنميمة والاغتياب ، فيتحول لسان الثرثار من حيث يدرى ولايدرى الى أفعى تنفث سمها الزعاف يمينا وشمالا فى الناس وسمعتهم وأعراضهم . وقد وصف الشاعر طائفة الكذابين المغتابين أحسن وصف إذ قال :

ان يسمعوا الخير يخفوه ، وان سمعوا شرا أذاعوا ، و إن لم يسمعوا كذبوا

ومن المعروف أن كلمة السوء تكبر وتتضخم بانتقالها من فم إلى فم، بل قد يروى الواحد منا خبرا بتحفظ واحتياط فيمهد له " بقد وربما و يظن و يقال " ولا يلبث أن يعود هذا الخبر فيروى له بصيغة الجزم والتأكيد القاطع .

وهناك عيب صغير كثير الشيوع ، وقد يبدو فى أول أمره لطيفا خفيفا محببا الى القلوب ، ولكن ما أسهل ما ينقلب ثقيلا كريها ، وهو المزاح .

فاللطيف من الممازحة يفكه النفس و يسرى عن الخاطر ، فيعرف الممازح الظريف اللبق أن يجعل مزاحه مزيجا من المدح والنقد ، فلا يشير الى عيب صغير فى من يمازحه إلا ليظهر فيه فضيلة كبيرة ، و إلا انقلب المزاح بين الاخوان استهزاء يذهب بالصفاء ، وسخرية تقطع الإخاء ، وهل نعتقد أننا بلا عيب حتى نسخر من عيوب الناس ؟

قال الشاعر :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة قليلا وعلله بشيء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

فإذا مازحنا اخواننا وأصدقاءنا وجب أن نحرص على ألا نجرحهم فى عواطفهم وعقائدهم و إلا كان المزاح إهانة ، وألا نعرض بعاهاتهم وعيوبهم الجسمية و إلا كان المزاح غلظة وخسة .

قرأت لأحد حكماء العرب : " ينشق أحدكم أخاه مثل الجردل ، ويفرغ عليه مثل المرجل ، و يرميه بمثل الجندل ، ثم يقول : إنما كنت أمزح ... " .

أما الممازح المتطرف ، أو الظريف المتصنع ، فلا شك فى أنه أثقل من الجندل ، بل أثقل من الجبل .

وهناك عيب آخر ربما صح إهمال ذكره بين العيوب لولا ما يجر اليه من العواقب ، وهو ما أسموه الحياء البشرى . فيحملنا هذا العيب الصغير على الخجل من حقيقة أمرنا . ثم يدفعنا الى الاهتمام بما يعتقده الناس فينا ، فنقضى وقتنا فى البحث عن آرائهم فى أعمالنا وأفعالنا ، بدلا من أن نقضيه فى إجادة هذه الأعمال . وقد قال أحد الظرفاء : كثرة الحياء مع الناس قلة حياء مع النفس .

ومتى وصل بنا هذا الحياء الى الإحجام فى قول الحقيقة أصبح نوعا من المداورة : نريد شيئا فنحوم حوله ولا نذكره . ونطلب أمرا من الأمور الجائزة فنسعى الى الحصـول عليه بطرق ملتوية . وقد يكون المداور مستقيما ولكنا على كل حال نتحاشى معاملته .

ويا ليت الحياء يقف عند هـذا الحد ، ولكنه يتطور ويتكيف حتى يصير مجاملة . ونحن مفطورون على المجاملة والمصانعة . قال شاعرنا العربى :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنيـاب ويوطأ بمنسم

نحن نجامل ونصانع فى شتى الأمور ، وإن لم يكن هناك خوف من أنياب ولا منسم . بل كثيرا ما نكذب من باب المجاملة فنقع فى مشكلات معقـدة كان يغنينا عنها شيء من الصراحة ، كأن نعرف مثلا أن نقول " لا " وكم كانت المجاملة أخصر طريق الى المداهنة والتدليس والنفاق .

أيها السادة : هذه العيوب ، مهما نصغر من شأنها ومهما ننعتها تجوزا بالصغيرة — هى عظيمة الأثر فى طباع الانسان وأخلاقه فتفعل فيه فعل السوس فى الخشب ، بل فعل النار فى الحطب . وقبل أن تعصف بها عصفا تورثه ضعفا فى الارادة وخورا فى العزيمة فتقعد بهمته ، وتضيع ثقته بنفسه ، وتدفع به الى التواكل والاستسلام .

وقد يكون التواكل من ألصق عيوبنا بنا : ينشأ ويتدرج معنا ، فالطفـل والشاب والرجل ، كل منا ، يألف الاهمال والاتكال على غيره فى قضاء أقرب الحاجات الى نفسه ، مع أن شاعرنا العربى قد أشاد بفضل الاعتماد على النفس :

وانمـا رجل الدنيا وواحـدهـا   من لا يعوّل فى الدنيا على رجلِ

والرجل المتواكل المتردد يضيع أيامه سدى ، لأنه يقضى زمنا طويلا بين الرغبة والارادة ، وبين الارادة والاعتزام ، وبين الاعتزام واختيار الوسيلة ، وبين اختيار الوسيلة والنهوض لتنفيذها . فينفق حياته واقفا مترددا بين طريقين لا يعرف أيهما يختار .

والتواكل والكسل عيبان متلازمان ، بل شقيقان توأمان ولا يورثان الا ضياع الوقت ، والوقت الذى يقدره الغربيون بأثمن المعادن ، لا يساوى فى نظر بعضنا حفنة من التراب ،

فى حين أننا مستطيعون أن نعوض كل خسارة مادية ولسنا بمستطيعين أن نعوض ساعة واحدة من الساعات التى ننفقها من حياتنا بلا حساب .

نحاول ، كما نقول ، أن نقتل الوقت وننسى أن من يريد أن يقتل الوقت ، قتله الوقت .

نحن لا نحب شيئا فوق حبنا الحياة ، ولكننا لا نسرف فى شىء اسرافنا فى مادة الحياة . والحياة لحظة خاطفة ، ولكن الانسان المجتهد يستطيع فى هـذه اللحظة الخاطفة أن ينجز أعمالا خالدة .

فلنروض أنفسنا على القول فى صباح كل يوم ، ليست الحياة يوم عيد ، ولا يوم مأتم ، بل الحياة يوم عمل :

اذا مرّ بى يوم ولم استفد يدا ولم أكتسب علما فما ذاك من عمرى

سيداتى :

لم أتناول فى عرضى هذا عيوبا خاصة بكن ، لأن عيوبكن ، هى عيوبنا ، وان كان بعضها أبرز فى الرجل ، والبعض الآخر أظهر فى المرأة .

ولكنى أقول إن المرأة اذا أصلحت نفسها قد تكون أنجع وسيلة لإصلاح الرجل . فأنتن يا سيداتى خير معوان لنا على اصلاح أنفسنا واستكمال فضلنا .

وهناك عيب من العيوب الصغيرة كنت أرجو ألا أكون قد وقعت فيه هذا المساء ، وهو حب الوعظ والإرشاد . ولكنى أعترف أنى لم أفطن له إلا عنـدما وصلت أمس الى هذا الحد من كتابة محاضرتى . فماذا فى غير مقـدورى إصلاحه إلا إذا طوت محاضرتى ، وربما كان الطى أفضل من النشر ، ولكنه لم يكن بالأمر الممكن ولا الجائز بعد أن تلقيتم دعوة هذه النقابة الناهضة لاستماع هذا الحديث ، غير أن شفيعى لديكم إخلاص النية وحسن القصد ، فتغتفرون لى هذا العيب وغيره مما بدا لكم فى كلامى من عيب أو نقص . ويكاد يأخذنى أنا أيضا شىء من التواضع الكذاب الذى أشرت اليه فى مطلع محاضرتى فأقول بدورى :

إن تجـد عيبا فسد الخـللا جل من لاعيب فيه وعلا

أيها السادة : عرضت عرضا سريعا لطائفة من العيوب أو النقائص التى نرتكبها كل يوم ، ونحاول تبريرها بوصفها بالصغيرة ، وما هى فى الواقع بالصغيرة ، قد يكون فى قانون العقوبات تفاوت بين الكبائر والصغائر من المخالفة الى الجنحة إلى الجريمة الى الجناية ؛ ولكنهم كلها فى القانون الأدبى سواء .

وقد يكون خطر العيوب الصغيرة أشد من خطر العيوب الكبيرة ، ذلك أن الكبيرة تشهر علينا حربا علنية فنخافها ونحتاط لها . أما الصغيرة فتتمكن منا خلسة وعلى غفلة منا ،

نحجم عن القتل بالسلاح وعن سرقة المال ، ولا نحجم عن القتل باللسان وعن سرقة المجد المزيف .

وهكذا تنسج العيوب الصغيرة حولنا خيوطا رفيعة لا نأبه لها فى بدء الأمر وتنتهى بأن تكون اصفادا من الحديد نرزح تحتها .

ويزيد فى خطر هذه العيوب أنها قد تكون فى ظاهرها أقرب الى الفضائل منها الى الرذائل ، بل انها قد تتقنع بقناع الفضيلة ، فيبدو الغرور اعتدادا بالنفس ، والخيلاء اباء ، وحب الذات غيرة ، والغضب ثورة للكرامة ، والحسد تنافسا محمودا ، والفضول حب استطلاع ، والثرثرة ذلاقة لسان ، والتواكل توكلا على الله .

وهذا ما يدعونا الى زيادة الحذر من العيوب الصغيرة لئلا تغزو قلوبنا وعواطفنا فى هذا المظهر الهين اللين فاذا تمكنت أصبحت عاتية مستبدة ، تفرض علينا إرادتها الدكتاتورية من حيث ندرى ولا ندرى ، لأنه اذا كان يصعب على الانسان أن يرتقى من الفضائل الصغيرة الى الفضائل الكبيرة فانه من السهل جدا أن ينزلق من العيوب الصغيرة الى العيوب الكبيرة .

ونحن نألف عيوبنا النفسية كما نألف عيوبنا الجسمية ، فنعود لا نأبه لها ولا نشعر بها ، ولكن الناس يشعرون وينزعجون ، وكثيرا ما يتألمون .

اخوانى : أنتم فى مطلع الحياة ، تنشرون قلوعكم لريح الأمل تدفعكم الى الأمام ، ولكننا فى عصر اشتدت فى خضمه العواصف العاصفة وثارت فى جوه الأعاصير الهوجاء ، ولا سبيل الى الثبات أمامها إلا إذا كان كل من فى السفينة حذرا يقظا يؤدى واجبه على الوجه الأتم .

وما أكثر واجباتنا فى هذه الأيام ، حكاما وشعبا ، أفرادا وجماعات ، وأول واجبات الشبان أن يكونوا مثقفين بالمعنى الحقيق والمعنى المجازى ، أى قويمى الأخلاق مجملين بحلى التهذيب .

فاذا شئنا أن نخدم بلادنا ، وأن نخدم عشيرتنا ، وأن نخدم أنفسنا ، فلنقبل على الفضائل تجملا لا تفضلا ، ولنقلع عن العيوب تورعا لا تصنعا ، فأنتم أيها الشبان النجباء فى عمر تستطيعون من هذا القبيل ما تريدون ولكنكم ستصيرون الى عمر تريدون ولا تستطيعون :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

أنطون الجميل